شَهلا العُجيلي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة إبداع عربي

سرير بنت الملك

20 قصص قصيرة

T.ME/KOTBHM

سلسلة إبداع عربى

٢٠

سرير بنت الملك

شَهلا العُجيلي

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٦

المحتوي

إهداء..... ٧

مذكرات حذاء سندريلا ٩

ميلاد مجيد..... ١٥

أم الغيث..... ١٩

بلدى حبيبي..... ٢٣

ليلة انهار البناء..... ٢٩

الأخطبوط..... ٣٣

المغلف الأزرق..... ٣٧

أحجار كريمة..... ٤٣

حالة إغماء..... ٤٧

حدث في البلدة..... ٥١

حدثني عن السريالية..... ٥٥

دار الست نجميّة..... ٦٣

رخصة مسدس..... ٧١

سرير بنت السلطان..... ٧٥
شجرة الأمنيات..... ٧٩
محاورات يونانية..... ٨٣
أمن بيئي..... ٨٧
ليليت..... ٩١
قلوب طيبة..... ٩٥
ضربات موفقة..... ٩٩
ماحدث في حقل الحنطة..... ١٠٣
يحدث كثيرًا..... ١٠٧

إهداء

إلى جناحيَّ

رزان ومزنة.

شهلا

مذكّرات حذاء سندريلاّ

تقدّم المجنّد بلباسه الرسميّ، يحمل على وسادة صغيرة من القطيفة الورديّة بين يديه، فردة حذاء نسائيّ، كان الحذاء حائل اللون، وقد تمدّد في جزء منه، وتمزّق جلده في جزء آخر، حتّى إنّ كعبه قد كسر، وانفصل بعض نعله عن بعض هيكله، ولم تفلح محاولات الترميم الواضحة كلّها في إعادته إلى سابق عهده. كان المجنّد ووراءه فرقة الخيّالة، يطوف بين بيوت المدينة باحثًا عن قدم المرأة التي ستناسبها فردة الحذاء، والذي كان، في الحقيقة، لفتاة في أواسط العشرينيّات من عمرها، جميلة وبهيّة، واسمها سندريلا، اشترته منذ أيّام من أحد محلاّت وسط البلد، أسود لامعاً مدوّر المقدّمة، وبكعب عالٍ وبلا تفاصيل أخرى، وقد دخل في قدمها الأنيقة، ذات القياس سبعة وثلاثين بيسر، وأمسك بها إمساكاً، وكأنّه مفصّل على مقاسها. لبسته سندريلا في اليوم التالي، وانطلقت إلى موعد مقابلة كانت قد ضربته مسبقاً مع إحدى الشركات، لتحصل على وظيفة فيها. سارت في طريقها ودخلت في الزحام، وإذ بمجموعة من الشباب يلتفّون حولها، توجّست منهم شرًا، فنأت بجسدها تحميه من أيّة حركة محتملة، وقبل أن تستوثق تمامًا من غايتهم، كانت يد أحدهم قد امتدّت إلى حقيبتها، وشدّتها بعنف، فانفتحت الحقيبة، وتبعثر ما فيها على الأرض، وعلى إثر صرختها فرّ الآخرون، وبقي الشاب يلتقط

ما أمكن التقاطه من أشيائها، لكنّ سندريلاّ تمكّنت من الإمساك بتلابيبه، وقد طار حذاؤها من قدمها ليستقرّ في يدها، فانهالت به ضربًا على رأس الشاب وجسده بكلّ عزم وغضب وعنفوان، حتّى خلّصه الناس من بين يديها قبل أن تزهق روحه، وحين عادت فردة الحذاء إلى قدمها، كان جلدها قد تكسّر قليلاً، وفقدت هيبتها السابقة.

وصلت سندريلاّ حانقة باكية، إلى مدخل العمارة التي تستقرّ الشركة في الطابق السابع منها، فوجدت أمامها رجلاً ينتظر المصعد، كانت هيئته غريبة، أربعينيًا ضخمًا بلحية سوداء مطلقة على عواهنها ومقزّزة، يرتدي جلبابًا أبيض يكاد لا يبلغ كاحله، وبقدميه صندل جلديّ بإصبع، وفي يده سبحة. أدار لها الرجل ظهره، ودخل المصعد وأراد أن يغلقه على نفسه قبل صعودها، لكنها ضغطت على زرّ فتح الباب، وصعدت رغمًا منه، وخلال الرحلة من الطابق الأرضيّ إلى السابع، كان الرجل ينظر إلى سندريلاّ شزرًا ثمّ يغضّ البصر ويحوقل، ثمّ يعاود فيلقي عليها نظرة خاطفة، يرفع صوته إثرها محتسبًا ربّه، ثمّ ينفتل في حجرة المصعد الضيّقة بطريقة هيستيريّة، ويستغفر! كانت سندريلاّ حائرة ومندهشة، نظرت في المرآة إلى نفسها، وإذ بها محتشمة وبسيطة وجادّة، وإنّ كونها حاسرة الرأس لا يجعلها شيطانًا على الإطلاق! وحين وصل المصعد الطابق السابع كانت نظرات الرجل المقزّزة، ودمدمته المتواصلة قد أوصلتها إلى ما لا يحمد عقباه، لذا، وقبل أن يفتح الباب، عاودت سندريلاّ فضغطت الزر ذا الرقم صفر، وما أن همّ رفيقها بالاحتجاج حتّى خلعت فردة حذائها، وهجمت عليه بوابل من الضربات التي سيمرّ وقت طويل قبل أن يشفى من آلامها!

دخلت سندريلا الشركة غاضبة ومتهالكة، أصلحت هندامها، الذي أضرّ به الشكل الجديد لفردة الحذاء، فقد تهافتت، واتسعت في قدمها، واختلف شكلها كثيرًا عن شكل الفردة الأخرى. قابلت سندريلا المدير الستينيّ، المعروف بانتمائه إلى إحدى أهمّ الجماعات التقدّميّة في البلاد، والذي راح يسألها بعض الأسئلة حول تخصّصها وخبراتها، ووضعها وأحوال الدنيا بعينها، حتّى استعادت هدوءها وطبيعتها، وشربت القهوة، على وعود بعمل مريح ومحترم، وراتب مرموق، وشيئًا فشيئًا انتقل المدير من وراء مكتبه ليجلس على الكرسيّ قبالتها، وقبل أن تستوعب نقلته تلك، كانت يده تمتدّ إلى جزئها السفليّ فتفادتها بحركة عفويّة لتتلقّى قرصة مخفقة في فخذها، فما كان منها إلاّ أن خلعت فردة الحذاء وانهالت بها ضرباً على رأس الرجل وجسده، ووجهه وعلى الهواء حوله، وهو يصرخ ويستنجد تحت وقع الحذاء الذي كاد نعله ينفصل عن جلده، ولم تتركه إلاّ حينما تدفّق الموظّفون لفضّ المعركة!

خرجت سندريلا محبطة ومندهشة من أحداث يومها الغريبة، كانت تبكي بغيظ وحرقة، وتندب ذلك العالم الذي بدا لها أسود ومبهماً، أرادت أن تبتعد عن الناس، وتنفرد بأحزانها، فأخذت طريقها إلى البيت، وخلال مرورها في الساحة العامّة حاذت عجوزًا تفترش الطريق، وتبيع المارّة خضارًا طازجة في قفف من القشّ أمامها، وإذ بسيّارة تقبل مسرعة، وتحطّ بجانب الرصيف، سوداء فاخرة، زجاجها معتم، وعلم البلاد على الخلفيّة، وقد انبثق من سيارة أخرى وراءها، بضعة رجال أشبه بوحوش، منعوا المارّة من المضيّ في سبيلهم، ومشّطوا المنطقة، مطيحين بقفف

الخضراوات، لتنزل من السيّارة سيّدة فارهة، لم تكلّف رقبتها عناء الالتفات إلى حيث جلست العجوز تنتحب بانكسار لامثيل له، فما كان من سندريلا إلاّ أن خلعت فردة الحذاء ذاتها، وصفعت بها خدّ السيّدة بحركة مباغتة لم يفطن لها المرافقون إلاّ بعد أن كانت سندريلا قد ضاعت في الزحام.

مشت سندريلا في شوارع المدينة على غير هدى، حتّى هبط الظلام، فلاح لها من بعيد حملة مشاعل، تبعت الضوء لتستطلع الأمر، فانتهت إلى تظاهرة عظيمة قائمة في الشارع المؤدّي إلى القصر الكبير، فيها خلق عصيّ على العدّ، يهتف بحياة الحاكم الذي كان يخطب على منصّة في صدر المكان، ومن زاوية بعيدة سمعت أصواتًا مناوئة، لمجموعة من الشباب، كانوا يسقّطون الحاكم بهتاف مضاد، لكن قبل أن يتمّوا عباراتهم الحارة رأتهم سندريلا جثثًا هامدة في بركة دم، في حين راح صوت الحاكم يعلو بمفردات ملتبسة بين حريّة، وعدالة، ومساواة، وثوابت... سندريلا التي كانت فزعة، ومروَّعة، اكتشفت قروحًا في قدمها ذات الحذاء المهلهل، فخلعت النردة، وقذفتها في الهواء بما بقي لديها من طاقة، فطارت واستقرّت على الأرض، لكنّ الكعب الذي كان قد انفصل عن الهيكل بشكل نهائيّ، نقر بنهايته المسماريّة أنف الحاكم على المنصّة، فأدماه، وبالطبع كان الليل قد انتصف، ودقّت الساعة الثانية عشرة، واختفت سندريلاّ.

ميلاد مجيد

بصعوبة، اقتنع الأطفال أنّ عليهم أن يناموا، لأنّ الهدايا تختبئ تحت وسادات النائمين فقط. غفوا، وبين جفونهم لُعب، وثياب، وألوان، وشجرة الميلاد في الغرفة المجاورة تبعث سعادة ودفئاً في أسرّتهم النظيفة، ونفوسهم النقيّة، وكانت مئات الأمنيات الصغيرة تدور مع كرات الثلج الذي لم ينقطع منذ ليلتين، تجوب المنازل، تحلّق حول كنيسة المهد على بعد أمتار منهم، ثمّ تعود لتطمئنّ في أحضانهم.

لم تفلح توسّلاتهم بإقناع الأمّ بأن يسهروا قليلاً ليشهدوا الألعاب الناريّة تفرقع في السماء، كان عليهم أن يناموا فقط، فـ"بابا نويل" سيفتح الباب بعد منتصف الليل، ويضع تحت وسادة كلّ منهم هديّة العيد التي صلّى من أجلها، وإن كانت الهديّة كبيرة الحجم، فسيضعها تحت السرير بهدوء، ثمّ سيخرج بسرعة قبل أن يُشعر به أحداً، فآلاف الأطفال ينتظرونه في أسرّتهم.

تلك الليلة كان نومهم قلقًا، كانت ضجّة وصخبٌ شديدان، ومع ذلك لم يجرؤوا على فتح عيونهم خوفًا من أن يهرب "بابا نويل".

أشعة الضوء الأولى بدأت تتسلّل من النافذة، وأيديهم الصغيرة تتسلّل بين الفينة والأخرى تحت الوسادة وتعود خاوية، تأخّر "بابا نويل"!

طلعت الشمس، وهم على خشية من فتح عيونهم، بدأ شعور بالفقدان يتسلّل إليهم، لكنّهم كانوا يطردون، بإصرار. صبيحة العيد كانت الأمّ تصطنع الفرح، قالت: ميلاد مجيد، والعبرات تخنقها! الأطفال حينما رأوها مرّوا بلحظة نضج، لم يبكوا، لم يبحثوا عن الهدايا، تسابقوا لتقبيلها ومعايدتها.

حينما خرجوا إلى الحارة ليلعبوا، عرف الأطفال أنّ "بابا نويل" لم يستطع الوصول إليهم، لأنّه قضى ليلته تحت جدار الفصل العنصريّ!

أمّ الغيث

راح الشيخ في طريقه إلى التلّة القريبة، يتابع صور أولاده وبناته القادمة من عهد الطفولة، ففي الأيّام الشبيهة بمثل هذا اليوم الأعجف، الذي تضنّ غيومه بماء يغيث الزرع والضرع، كانوا يتجمّعون في ساحة الحيّ مع الأهل والأقران، حاملين دفوفًا صغيرة، أو علب صفيح صدئة، يقرعونها، وهم يسيرون خلف كبارهم، يهزجون أهازيجهم بأصوات ملؤها الشجن، متضرّعين إلى السماء:

يا أمّ الغيث أغيثينا بلّي فروة راعينا

راعينا حسن الأقرع من سنتين ما يزرع

يا أمّ الغيث أغيثينا...

تتعالى نداءاتهم إلى أن يصلوا التلّة ذاتها، يرمون آلاتهم البسيطة، ويرصّون الصفوف، ويبتهلون إلى الله في صلاة الاستسقاء، وما أن يقبل الغيث حتّى يهللوا ويكبّروا، وينتشروا تحت المطر مثل أسرى باغتتهم الحريّة. يفتحون أفواههم الصغيرة علّ القطرات تتجه من السماء إليها مباشرة، بلا وسيط يفقد ذاك الماء الزلال بركته، وقتها تحلّ البنات ضفائرهنّ ويمنحنها لماء السماء، كي تغدو أطول وأبهى، ويرددن:

يا مطر يا عاصي   طوّل شعر راسي

يا مطر يا عاصي   ط ّل شعر راسي

كبر الصغار، والمطر مازال يقبل سنة، و يغيب أخرى، ولم يبرح الشيخ عاداته، فيدعو الأهل والأبناء لمرافقته، يتجه إلى التلّة القريبة، ويبتهل إلى الله تعالى أن يسقي العطاش، لكنّ الأبناء ما عادوا يملكون دفوفهم وعلب صفيحهم، صار كلّ منهم يفتح حاسوبه المحمول، ينظر في النشرة الجويّة، ويبحث في توقّعات حالة الطقس للساعات المقبلة، ليخبر أباه الشيخ بأنّها ستمطر، أو أنها لن تمطر...

وكانت البنات بناء على تلك الأخبار، يحددن ما يردن ارتداءه، وإذا ما كنّ سيحملن المظلّة التي ستقي شعورهنّ من البلل، أم سيتركنها في البيت.

لن تمطر، هذه الأيّام، أجمع الأولاد على كلمتهم، فدائرة الأرصاد أعلنت ذلك، فلا منخفضات جويّة، ولا رياح رطبة، إلاّ أنّ الأب الشيخ، توضّأ، وسار وحيداً نحو التلّة، أقام صلاته، وابتهل، وما كاد ينحدر، حتّى أقبلت أمّ الغيث!

بلدي حبيبي

فزعت البلدة من خبر ارتفاع أسعار الوقود، ووقع الناس في حيرة وخوف، إذ كيف يمكن لهم أن يتدبّروا حياتهم، والدنيا على أبواب شتاء، وشتاء بلدتهم الجبليّة ظالم البرد، ثمّ إنّهم لا يملكون من وسائل التدفئة سوى هذه المدافئ المازوتيّة الصغيرة التي آنستهم سنوات طويلة، أمّا مدافئ الكهرباء، فلم تدخل بيت أحد منهم، فما فائدتها إذا كانت فاتورة الكهرباء تجاوز في ظلمها ظلم الطبيعة، هذا إن كان التيّار متوافراً!

مع ذلك الخبر غير السارّ، أعيدت المدافئ المازوتيّة التي انتصبت في البيوت منذ مطلع الشهر، إلى المخازن، أو تمّ بيعها في سوق الخردة، لتحلّ محلّها مدافئ الحطب، فالحطب، مهما ارتفع سعره لن يوازي سعر البترول، وليس أكثر منه في هذه البلدة المحاطة بغابات كثيرة، لا تزال بكرًا، ويمكن أن تدفّئ الناس شتاءات كثيرة!

ما كاد أهل البلدة يفرحون بالشَعلة الأولى للمواقد ومدافئ الحطب، التي بثّت الحميمية في نهاراتهم ولياليهم، وذكّرتهم بغابر الأيّام، حين كان أجدادهم يتجمّعون حول مثل تلك المواقد، ويروون الحكايات، حتّى نُمي إلى أسماعهم أن الحكومة منعت التحطيب في الغابات المجاورة، لأنّه عشوائيّ، ويوقع أضراراً بالغة بالثروة

الطبيعيّة، ويهدّد الأمن البيئيّ عبر استنفاد مصادر الطاقة النظيفة، ممّا يعيق عمليّة التنمية الشاملة! ومع ذلك تركت الحكومة الرحيمة باباً يدخل منه الدفء، إذ منحت شركة (بلدي حبيبي) وكالة حصريّة بالتحطيب، ذلك أنّ الشركة حاصلة على شهادة (الأيزو) في التحطيب من غير الإضرار بالطبيعة وبالبشر. وبذلك صار بإمكان الناس أن يطلبوا الحطب على الهاتف، فيصلهم إلى المنزل عبر خدمة التوصيل المجّاني، فيصير سعر الحطب مع الضريبة والخدمات، أغلى بقليل من سعر المازوت.

البرد الذي راح ينخر أجساد الصغار، وحالات التهاب القصبات التي قتلت عدداً من المواليد الجدد، جعلت أهل البلدة يتوجّهون إلى معاصر الزيتون المجاورة، فيشترون (جفت) الزيتون بثمن بخس، ويلقون به في مواقدهم التي ازدهت بنيرانها الحمراء المعطرة بعبق إكسير الزيتون، وعادت البهجة لتسكن حمّامات الناس، وتلوّن وجوه أطفالهم بألوان العافية. وحين نزل الناس إلى المعاصر لينقلوا الجلبة الثانية من (جفت) الزيتون، وجدوها مغلقة، وقد رفعت على كلّ منها لافتة تقول بأنّ الوكيل الحصريّ لـ (جفت) الزيتون هو شركة (بلدي حبيبي). وهكذا، صار الناس يبتاعون (الجفت) من البقّاليّات، مضغوطاً ومغلّفًا، ومعلّبًا، بعلب أنيقة، مختومة بشعار (بلدي حبيبي) فاحذروا التقليد، وأيضًا ثمّة هاتف لخدمة التوصيل المجاني إلى المنازل، وبذلك تضاهي تلك البضاعة المحليّة بجودتها أرقى البضائع العالميّة، وإن كانت تتفوّق عليها بالسعر، لأنّ زيتون هذه المنطقة بالذات زيتون مبارك!

حين ضاق أهل البلدة ذرعاً بالبرد، فكّروا بالشمس، فالشمس لا يمكن لأحد أن يحجبها! وقبل أن يهمّوا بتركيب شفرات آلة الطاقة الشمسيّة، تسلّموا إنذارات احترازيّة، تفيد بأنّ شركة (بلدي حبيبي) هي الوكيل الحصريّ لأشعّة الشمس، فأحجموا عن تركيب شفراتهم.

مرّت أشهر الشتاء بطيئة من غير أن يحرّك أهل البلدة ساكنًا. لم يحاول أحد منهم الاحتيال لاستدرار شيء من الدفء، ممّا أقلق شركة (بلدي حبيبي) على وكالاتها الحصريّة المتعدّدة، فما كان منها إلاّ أن أرسلت مندوبيها إلى البيوت، لاستطلاع أمر الناس الذين قد يقتلهم مثل هذا البرد، فعاد المندوبون بتقارير متطابقة تفيد بأنّ البيوت كلها لا تستعمل أيّة وسيلة للتدفئة، لأنّ أهل البلدة جميعًا قرّروا ألاّ يشعروا بالبرد.

ليلةَ انهارَ البناء

ليلةَ انهارَ البناء، خرجت المرأة التي تقطن في الطابق الثاني في وقت متأخّر، قالت إنّها ذهبت إلى منزل أهلها في الشارع الخلفيّ لتأتي برغيف خبز، فزوجها الذي سافر فجأة في ذلك اليوم، لم يتسنّ له إحضار متطلّبات البيت. حين عادت المرأة مع الفجر وجدت بيتها كومة حجر، وتحتها طفلاها النائمان ميّتين. فيما بعد، تبيّن أنّها كانت عند أحدهم، ذلك الرجل الذي يقطن في نهاية الشارع.

وليلةَ انهارَ البناء، غادر الرجل مكتبه حوالي الحادية عشرة مساءً، لم يتّجه إلى البيت، زعم أنّ عملاً كثيراً لديه، مناوبة، أو ما أشبه، صرف سائقه، وقاد السيّارة بنفسه، توقّف أمام "سوبر ماركت"، اشترى طعامًا وشرابًا، ومضى...

مع الفجر، أخلى رجال الدفاع المدنيّ جثّة ضابط كبير، كان في منزل فتاة، فتاة ليل، تقطن في الطابق الرابع.

وليلة انهار البناْء، غادرت الحماة منزلها، ومعها ابنتها، لتقضي اللّيلة في بيت ابنها الذي يقطن في الطابق الثالث، ويعمل في دولة عربيّة، مستغلّة غياب زوجته. كانت تلك عادتها، كلّما سافرت الكنّة لتزور أهلها في المدينة المجاورة، اقتحمت الحماة منزلها، لتفتّش، وتطّلع، وتأخذ...

ليلتئذ، استُدعيت الكنّة لتتعرّف على حماتها، وبنت حميها، اللّتين خرجتا جثّتين هامدتين من تحت الأنقاض.

وليلةَ انهارَ البناء، طوّقت الشرطة المكان، وحوّم الصحفيّون حول الطوق، يتلقّطون الأخبار من هذا وذاك، ودارت كاميرات التلفزيونات، وقام رجال الدفاع المدنيّ بعمليّة إخلاء الجثث، يساعدهم متطوّعون من أهل الحيّ، وولولت سيّارات إسعاف ثلاث، وندب أهالي الضحايا ضحاياهم، وبكوا، ولمعت عيون بعضهم باللّهفة والأمل، عسى أن يُعثر على أحياء.

هذا ما ورد في تقرير مختار الحيّ عن اللّيلة التي انهار فيها البناء.

الأخطبوط

سرير بنت الملك

"محمّد إسماعيل" هذا هو الاسم الذي وجدته قوّات الاحتلال مكتوباً على جدار الغرفة الحقيرة التي اختبأ فيها. كما يُعتقد. الإرهابيّ الذي فجّر حافلة إسرائيليّة أثناء عبورها في أحد شوارع القدس الغربيّة. وبطريقة هيستيريّة. أمر الجنرال جنوده بالبحث عن "محمّد إسماعيل" وتصفيته فوراً.

احتارت قوّات الاحتلال بأمر "محمّد إسماعيل" هذا. فهو منظّم في سجلاّت "فتح". وفي سجلاّت "حماس". وهو من "رام الله". كما أنّه من "غزّة". وقد وجدوا اسمه في دائرة الأحوال المدنيّة في "القدس" و"نابلس"...

وحينما اتّضح فيما بعد أنّ العمليّة الإرهابيّة التي وقعت في شارع "سعدون" في "بغداد". مستهدفة سيّارة تقلّ جنوداً أمريكيّين. قد نفّذها عراقيّ اسمه "محمّد إسماعيل". أدرك الجنرال أنّ الأمر تجاوز قدراته المحليّة. فطلب عون الـ (CIA) للبحث عن "محمّد إسماعيل" الذي تبيّن أنّه تسلّل إلى العراق من الأردن. عبر الحدود السوريّة.

وعندما تمّ تفجير فندق في "طابة" يضمّ سيّاحاً إسرائيليّين، عثرت قوّات الأمن في موقع العمليّة على بطاقة شخصيّة لمواطن مصريّ اسمه "محمّد إسماعيل". إلاّ أنّ الأمر تجاوز ذلك الحدّ،

إذ اكتشفت قوّات حفظ السلام في أفغانستان أنّ المنزل الذي كان يجتمع فيه مدبّرو العمليّات الهجوميّة ضدّ الأمريكان يملكه مواطن أفغانيّ اسمه "محمّد إسماعيل". لكنّ خبرًا عاجلاً من "لبنان" أفاد بأنّه قد عُثر على كميّة من المتفجّرات في سيّارة تقف على الحدود اللبنانيّة - الإسرائيليّة، والسيّارة تعود لمواطن لبنانيّ، اسمه "محمّد إسماعيل"، وأثناء البحث عن هذا الأخير، علم الجنرال أنّ كلمة السرّ لجهاز الكمبيوتر الذي أُصدر منه أمر البدء بتفجيرات الحادي عشر من أيلول هي "محمّد إسماعيل"، وهو الاسم ذاته المدوّن على بطاقة التعريف بحقيبة لا صاحب لها، عُثر عليها للتوّ في مطار "شيكاغو" حيث يتمّ فحصها. لحظتها أعلم الجنرال رئيسه بأنّ عليه أن يقبل استقالته، وإلاّ فليسمح له بنسف العالم!

المغلّف الأزرق

فوجئت القاصّة التي كانت تشقّ طريقها بتؤدة نحو عالم الإبداع، برسالة بريديّة، تخبرها بأنّها فازت بالمرتبة الأولى في إحدى أهمّ الجوائز العربيّة، وذلك في فئة الشعر، عن ديوانها (عواصف الحنين)، الذي اقترحت لجنة الجائزة تغيير اسمه إلى (نجّنا من الشرير)! لكنّ الشاعرة التي لم تصدر سوى مجموعتين قصصيّتين، ولم تفكّر يوماً في أن تتقدّم إلى أيّة مسابقة، لا تكتب الشعر، بل تكتب على استحياء ما يسمّى تجاوزًا نثرًا شعريًا، وتلقيه في درج مكتبها، إذ تحوّلت بعد يقينها من ضعف كفاءتها الشعريّة إلى كتابة القصّة. أيكون هو زوجها السابق قد جمع مكتوباتها، وأرسلها إلى المسابقة قبل انفصالهما! ربّما يكون هو، وها قد عاقبه الله بالفوز، ولكن من أين جاءت (عواصف الحنين) هذه؟ لا بدّ من أنّه هو قد اختار العنوان أيضاً!

ما يهمّ في الأمر الآن هو أنّها فازت، وأنّ مبلغًا كبيرًا، وكبيرًا جدّاً من المال سيكون قريبًا في حوزتها، ثمّ إنّ باب الشهرة سيفتح أمامها، لتستثمره في كتابة القصّة، الفنّ الذي تبرع فيه.

بعد أيّام كان في بريد الشاعرة - القاصّة، النسخة الأولى من ديوانها (نجّنا من الشرير)، بطبعة متفوّقة، يبرق على الغلاف اسمها، مرفقاً باسم الجائزة، وبالمرتبة الأولى.

فتحت الديوان بلهفة، قلّبت الصفحة تلو الصفحة، عادت إلى الفهرس، فأراعتها الغربة الشديدة بينها وبين النصوص: لا فكرها، ولا لغتها، ولا صورها..

الديوان ليس لها، لكنّ الاسم اسمها، والعنوان البريديّ عنوانها، والمال صار في حسابها!

سيطر عليها القلق، بل الخوف أيّاماً، وكان يستنحل مع كلّ لقاء صحفيّ، تحوّل فيه مجرى الأسئلة من الشعر إلى القصّة، ويعود مع كلّ دراسة أدبيّة تشيد بمقدرتها الشعريّة التي اختبأت طويلاً وراء جملتها السرديّة، لكنّها مع الوقت راحت تتكيّف مع لقبها الجديد، إذ لم يظهر طوال الوقت ما يكدّر صفو هذه السانحة، خصوصًا أنّها سارعت إلى نشر مجموعة قصصيّة جديدة، ألهت بها الساحة الثقافيّة، وأنستها ذلك الديوان، مجهول القائل.

وحينما أوقفت سيّارتها الفارهة، التي اشترتها بعطايا الشعر، أمام دار النشر، كانت تحمل روايتها الأولى.

رحّب بها الشاب العشرينيّ الذي كان يجلس وراء الكمبيوتر ترحيبًا حارًا، هي تعرفه جيّداً، فهو الذي يصفّ النصوص التي تصدر عن الدار، وينضّدها، ولطالما استعجلته في إنهاء تنضيد أعمالها ليدفع بها إلى المطبعة. وأثناء حديثهما عن عملها الجديد، قال الشاب: نسيت أن أقول لك في المرّة السابقة، إنّك منذ زمن، ربّما يعود إلى أربع سنوات، قد نسيت على مكتبي مغلّفًا ورقيًا أزرق، عليه اسمك، وعنوانك

سألته: وماذا كان فيه؟

قال: لا شيء، كان فارغاً، وإلاّ لأعدته إليك، ولكن اعذريني، فقد استثمرته!

قالت: لا بأس، بما أنّه كان فارغًا! واسترسل الشاب: وجدته أنيقاً، فوضعت فيه مجموعة من قصائدي، لأشارك بها في إحدى الجوائز العربيّة، بصراحة هي الجائزة التي تقدّمت أنت إليها بديوانك (نجّنا من الشرير)، لم أتوقّع أنّ أقلامًا رفيعةَ كانت ستشارك فيها، وإلاّ لما كلّفت نفسي عناء الأحلام - وضحك الشاب - عمومًا لا بدّ من أنّ الجائزة نزيهة بما فيه الكفاية، لتفوزي أنت بها، إلاّ أنّ لي عتباً عليك، إذ لم أحصل على نسخة من الديوان!

بادرته بوجه أصفر، ولسان متلجلج: لا بدّ من أنّك نسيتَ أن تضع على المغلّف الأزرق عنوانك!

قال: كأنّك كنت معي، لقد خامرني الشكّ، بعد أن أرسلتُ المغلّف بأنّني كتبتُ عنوان المرسل إليه، ونسيت أن أكتب اسمي وعنواني، لكن حتّى لو نسيت فمن المؤكّد أنّهم سيبحثون عنّي في حالة فوز ديواني (عواصف الحنين)، إلاّ أنّ (نجّنا من الشرير) هو الذي فاز، وشتّان بين القلمين أيّتها المبدعة!

أحجار كريمة

١ ـ الفيروزج:

من تقلّد به دفع عنه القتل، ولم يُر قطّ في يد مقتول...

فما لي أتطوّق بالنفيس منه، وتمعن كلّ يوم في قِتْلتي!

٢ ـ حجر مازن:

قرّر ملك بلاد المشرق ألاّ ينام، لأنّه كلّما نام، رأى المنامات الرديّة: وحوش كاسرة تطارده، ودماء تحاصره، وغيلان تضاجعه، حتّى أدركه النحول والإعياء، وبات لا يقدر على الحركة. حكماء المملكة أجمعوا على أنّ حجراً في (سَرَنديب) من معدن البلخش الأسود، يُدعى (مازن)، كفيل بطرد مثل تلك المنامات، فجاؤوا به، وجعلوا وزن عشرين شعيرة منه خاتمًا، لبسه الملك، لكنّ الليالي مرّت، وحالته تزداد سوءًا...

الملك الذي عرض أن يدفع ملكه ثمنًا لنوم هانئ، طلب حكيم الهند والسند، فأشار عليه بأن يتنحّى عن العرش، فتنحّى. في ذلك اليوم نام الملك السابق، وصارت أحلامه ورديّة!

٣ ـ البرنج:

كان أمره محيّرًا، دائمًا يُشاهد وفي يده حجر أسود، وجهه

برّاق كالمرآة، يُحدّق فيه، ولا يحوّل عنه النظر. وبعد لَأيٍ عرفوا أنّه من نظر في حجر (البرنج) قوي بصره، ومُدَّ ليخترق الجدار، فيرى عُري الجارة من ورائه!

٤ ـ ياقوت أحمر:

لم يُر إلاّ متختّمًا بياقوتة كبيرة، ليس من أجل ألاّ يلحق به الطاعون، بل لأنّ الياقوت يُسهّل قضاء حوائج حامله، ويجعله في قلوب الناس مهيباً، ويقوّي قلبه...

كانت كلّ حوائجه تقريبًا مقضيّة، وكان كلّ من يراه يُجلّه، وكان قلبه قويًا بما يكفي لضربها، ومع ذلك كانت تراه مثل فأر!

حالة إغماء

لم يعرف أحد متى بالضبط وصل الساكن الجديد إلى بيته، حتّى بوّاب العمارة شخصيًا لم يشعر به، حاله حال بقيّة السكّان. لكنّ المهمّ في الأمر أنّ هذا الشابّ العشرينيّ، ذا البنية الضخمة، والمظهر الأنيق، والسمرة الجذّابة، قد فتن بابتسامته الساحرة صبايا العمارة جميعًا، لا بل صبايا الحيّ جميعًا، فرحن يترقّبن غدوّه ورواحه، وذهابه وأوبته، بكثير من الشغف والفضول، على أمل أن تحظى كلّ منهنّ بنظرة، فابتسامة...

لكنّها وحدها كانت على يقين من أنّ نافذة هوى وشيكة ستُشرع بينهما، لأنّها الأجمل، والأذكى، والأقرب، فهي تسكن في الطابق الذي يعلوه مباشرة، والأقربون أولى بالمعروف!

وهكذا راحت تتحيّن كلّ فرصة لتلتقي عيونهما عن قرب، وهذه الفرصة لا تأتي سوى مرّتين في اليوم، في الصباح الباكر حين يخرج لينزّه كلبه، وفي المساء حين يخرج لينزّه كلبه أيضًا، فيما عدا ذلك لا أحد يلمحه على الإطلاق. لذلك استبدّ الفضول بها وبغيرها لمعرفة سرّ هذا الشابّ، صاحب الكلب.

أمّا الكلب، فهو أشبه بالكلاب البوليسيّة، أسود، ضخم، بعينين تومضان ببريق وحشيّ. وهو كثيرًا ما يجري، فينبح، فيجرّه

صاحبه من سلسلته الغليظة، فيعلو نباحه، ويعلو، إلى أن يهديه اللّه فيمشي.

لشدّ ما كانت تكره الكلاب، وتخافها، بل إنّ بها رُهابًا تجاهها. وفي حين كانت صويحباتها وجاراتها يراقبن الكلب وصاحبه في النزهات اليوميّة من النوافذ والشرفات، كانت هي تتربّص للقائه وجهاً لوجه، لكنّ التوقيت دائمًا كان يخونها، فإمّا أن يتأخّر المصعد، فتنزل لتجده قد دخل بيته، وإمّا أن تصل قبله نازلة درجات السلّم، فتشعر بحرج يُجبرها على أن تعاود أدراجها، فتصعد إلى بيتها لتسمع صفق بابه، وإمّا أن يكون أحد الجيران صاعداً، أو نازلاً، فيحبط مخطّطاتها...

لكنّها عزمت هذه المرّة على مواجهته، والنظر في عينيه مباشرة، وهي تعرف، عن تجربة، أنّ هذه النظرة بالذات تُصيب من القلب مقتلاً، ولا تحيد.

شحذت كلّ رغبة، واستقلّت المصعد إلى طابقه، قُبيل توقيت خروجه من بيته بلحظات، أبقت باب المصعد مفتوحًا، وهي داخل الحجرة، لينضمّ إليها، سمعت صوت اقترابه من الباب، فهبط قلبها...

فتح الباب، خرج وكلبُه، أغلق الباب، ثمّ وضع المفتاح في القفل ليُحكم الإغلاق، انفلتت السلسلة من يده، فاندفع الكلب إلى حجرة المصعد، التي أُغلق بابها بمجرّد دخوله.

تسمّرت، واختلط نباحه بصياحها. كانت آخر صورة بدت لناظريها: أنياب حادّة، ولسان أحمر متدلٍّ، ولعاب، فبعدها، راحت في حالة إغماء، نتيجة خوف شديد، وعضّة في الساق.

حدث فى البلدة...

بدت البلدة في الصباح الباكر مقيتة، شاحبة، وكأنّ هواء أصفر لفحها، فقد طُليت الجدران كلّها باللّون الترابيّ، وكذلك درّابيّات الدكاكين، وأبواب البيوت، ونوافذها، وأسوارها. ولم تنجُ حوافّ الأرصفة من تلك اللّوثة الصفراء التي أصابت البلدة.

أمّا أطفال تلك البلدة فقد بدا منظرهم مضحكًا بلباسهم المدرسيّ الجديد، ذي اللّون الأزرق القاتم، فبلدتهم على تخوم البادية، التي لوّحتهم شمسها الحارقة، هذا فضلاً عن بشرتهم البنيّة أصلاً، فزاد لباسهم قتامتهم قتامة، بشكل يغمّ نفس ناظرهم، ويحزنه على طفولتهم الداكنة في الوقت ذاته.

لكنّ الوضع الأكثر غرابة الذي انتاب البلدة، هو حالة الإسهال العامّة التي أصابت الناس، فتجمهروا أمام المستوصف، وعيادة الطبيب، والصيدليّة، أمّا من سافر منهم إلى المدينة قاصدًا مستشفى، أو طبيبًا، فقد عانى الأمرّين نتيجة التوقّف المتكرّر على الطرقات، لقضاء حاجة ملحّة جرّاء الإسهال. ولم يكن سبب الإسهال وباء، أو جرثومة، أو موجة برد، بل هو زيت الخروع، إذ نشطت في الآونة الأخيرة الدعاية لفوائده العظيمة، في تقوية الشعر والأظافر، وإذابة الشحوم، وتنعيم الجلد، وزيادة الذكاء، وشفاء العلل...

وبناء على ذلك، تمّ طرحه في سوق البلدة، ولم يقتصر الناس على الادّهان به، بل راحوا يتناولونه، ويستخدمونه في الطبخ، بدل زيت الزيتون!

في الحقيقة، لم يكن وراء تلك الظواهر الغريبة في البلدة سوى العمدة، الذي ساهم في صفقة طلاء كسد فيها اللّون الترابيّ، ثمّ أبرم ابنه صفقة قماش، فبارت تجارته في اللّون الأزرق القاتم، وأخيرًا وليس آخرًا، جاءت صفقة زيت الخروع!

أغرب ما وقع لي فى ٢٠١٠

حدّثنى عن السيريالية

كنت قد أجريت لطلبتي امتحانًا في مادّة تاريخ الفنّ، وكان السؤال عن السرياليّة، عن فلسفتها، ونشأتها، وملامحها، وأهمّ أعلامها، وكانت إجابات الطلبة جيّدة في العموم، فالمادّة مادّة حفظ، ليس فيها مجال للابتكار، إلاّ أنّ إجابة لإحدى الطالبات أذهلتني، وجعلتني أعيد النظر فيما قرأت من فنّ وأدب ونقد، الإجابة كانت أشبه برسالة فيها حكاية، ترويها الطالبة، فتقول:

أستاذتي العزيزة، أنا أعرف الإجابات المدرسيّة، وأحفظ مقرّر تاريخ الفنّ عن ظهر قلب، لكنّ حكايتي هذه ستقدّم السرياليّة بطريقة مَن خرج من عمق الفكرة، لا بطريقة من أحاط بها، فامنحيني حلمك حتّى أقصّ عليك ما لم أستوثق من كونه حلمًا أو حقيقة:

وجدتني هائمة على وجهي في غابة موحشة، لا أعرف إن كان خارجها ليل أم نهار، ظلام يطبق على المكان، وبرد، برد أقسى من الفقد، كنت شعثاء وثيابي ممزّقة، وربّما نهشني الذئب وأنا ذاهلة في هذا الضياع، وأقلّ من ذلك بقليل كان جوعي وعطشي وتهافتي. قلت لنفسي هي اللحظة الأخيرة التي سأتمكّن فيها من فتح عيني، لأنني بعدها سأموت لا محالة، في تلك اللحظة رأيته واقفًا قبالتي، لم أعرف إن كان حقيقة أم سرابًا، وارتبت في أن

يكون شجرة أو وحشًا من الوحوش، إلى أن مدّ لي يده، فتشبّثت بها، ولحرصي عليها نفر سائل أحمر مكان أظافري التي انغرست في لحمه، حينها ابتسم لي، فأضاء المكان، وانقشعت ظلمة الأشجار، وطلعت علينا شمس لم أعهد لونها من قبل، صفراء إلى بياض، بدّدت عزلة الكائنات من حولنا. لا أعرف كيف أقبل حصان أزرق حملني عليه ومضى بي خارج الغابة، ورغم أنّ ذراعيّ كانتا أشبه بخرقتين، إلا أن قوة كانت تشدّني إلى صلابة جذعه، وكانت ساقاه تلتفان حول ساقيّ الواهنتين مثل نباتات خضراء متسلّقة وحانية، فغدونا روح العالم على صهوة جواد! أين سرنا، وكيف غادرنا الغابة لم أعرف، إذ وجدتني في مدينة واسعة كثيرة الهرج والمرج، فيها نهر عظيم قيل إنّه مقدّس، يعيش ناسها بقوّة الحبّ وحدها، دخلنا إلى مكان أشبه بخيمة فسيحة، فيها رجال ونساء، يجلس كل زوج منهم على أريكة وأمامهم طاولات عليها طعام وشراب، كانوا مبهجين في ضحكاتهم وأصواتهم التي تتعالى ثمّ تروح مع صوت التلفاز ذي الشاشات المتعددة وهو يبثّ أغاني الحبّ والشجن، عليهم ملابس بسيطة لكنها زاهية، وقبل أن أنظر إلى المزق على جسدي كان صاحبي قد وضع عليّ لفحة صوفيّة كانت معه، ورويدًا رويدًا اتسعت اللفحة الضيّقة حتّى سترت عريي، فصرت في ثوب مكتمل النسيج، دافئ، وبلون السكّر، ونظرت إلى الأريكة التي جلسنا عليها فإذا هي أريكتي التي في بيتي هناك في بلد آخر، وبعيد، هي ذاتها، من قصب البامبو، وعليها فراش وثير بنقش يحاكي جلد النمر، وفي قائمتها السفليّة مسمار صدئ في غير مكانه، ما الذي أتى بأريكتي إلى هنا! كنت قد اقتنيتُ الأريكة منذ سنتين لأجلس عليها في الشرفة وأرقب [illegible]
مذ قديمًا مسمار [illegible]

أخذتُ يد هذا الرجل، رجل الغابة بين يدي، الآخر بدأ يتساقط، سقط أنفه، ثمّ فمه، ثمّ عيناه، وشعره ، وذراعاه، ولم يبق منه شيء، حتّى الأشلاء تطايرت في ريح لم تكن موجودة، وغادرت الخيمة. لم يبق سوى رجل الغابة إلى جواري، وركبني إحساس بأنني لن أستطيع أن أكون بعيدة عنه بعد الآن، فاقتربت ألتمس مزيدًا من الأنس، وإذ بوهج يخرج من قلبه، رأيت الوهج أحمر وأزرق، ثمّ شعرت به، فما كان إلاّ أن ألقيت جذعي فيه، ثمّ ألقيت كلّي، ونمت، نمتُ من غير أن أعرف إذا ما كنت قد نمت في المنام أم نمت في الصحو! قال حين استيقظتُ: إنّ الرجل إذا ما أحبّ امرأة في بلادهم عليه أن يذبح تحت قدميها كبشًا، ويشوي كبده، ويأكل منه ويطعمها، لكنّه لم يفعل ذلك من قبل، ليس لأنّه لم يحبّ، بل لأنّه نباتيّ، ولأنّ الكبش أخوه، فماذا عساه يفعل! أشرت بيدي إلى حبّة كبيرة صفراء محمرّة، كانت على مصطبة بعيدة في المطعم على مرمى نظرنا، فقال لي: اسمها مانجا، وطلبت أن يذبح الحبّة، ويريق ماءها، ففعل، وشربنا شرابًا حلوًا ومسكرًا، وفجأة فرغ المكان من الناس والأشياء ولم أر في الكون سوى يديه، كانتا أشبه بشجرتين أصيلتين، عروقهما أغصان وارفة، تبعث عطرًا له رائحة المطر في الصحراء، قلت في نفسي، أبقى في ظلّهما، لن أغادر؟ ثمّ سأغادر إلى أين؟ وإلى من؟ هزّ في وجهي الشجرتين بحركة سحريّة فأويت إلى ظلّهما، لا أعرف من قال له إنّني وحيدة، ولا أمّ لي، ولا أب، ولا إخوة، ولا أحبّة! بعد ذلك وجدتني في طائرة ستعود بي إلى مكاني، وقبل أن تقلع توقّفت وأعلن قائدها بأنّ قوّة مجهولة منعته من الطيران، كنت أعرف أنّها قوّته، وأنّ هذا اليوم الذي سأبقى فيه معه يوم فائض عن عمري، حصلّته في غفلة من زماني وزمانه، مع أنّ كلينا يعرف

أنّه مفارق الآخر، ولكن إلى حين، لذا حطّت بي طائرة أخرى في اليوم التالي في مكاني، وعدت لكنني لم أكن أنا، كلّ شيء حولي هو هو، لكنّ ذاتي غيرها، وحين كنت أمارس رياضة المشي الصباحيّة في الحديقة المجاورة لبيتي التقيت الرجل الذي كنت ألتقيه كلّ يوم، ندور معًا حول سور الحديقة الداخليّ ولكن في اتجاهين متعاكسين، لا أعرفه ولا يعرفني، فقط نتبادل نظرة عابرة عند نقطة التقائنا، حين نظرت النظرة الخاطفة المعتادة، ذهلت، كان هو، هو ذاته رجل الغابة، في لباس رياضي، وعلى رقبته اللفحة الصوفيّة ذاتها، حملقت فيه فراح يبتسم بفرح، وتحوّلت ابتسامته ضحكًا حلوًا، وهو يردّد مثل من نجا من زلزال وشيك: الحمد لله الحمد لله، حاولت أن أتماسك، وأتبيّن الحقيقة، فنظرت إلى الشجرتين اللتين لا يمكن أن أخطئ فيهما، لكنّه، ولسوء حظّي، كان يرتدي قفّازًا رياضيًا من ماركة (بوما)، اقتربت منه أكثر فملأت صدري رائحة مطر الصحراء، وانتبهت للمرّة الأولى بأنّ شعره كان أبيض أبيض مثل الفضّة، وكنت حتّى اللحظة لم أنتبه إلى أنّ شعر رجل الغابة كان أبيض أيضًا، كيف رأيته أسود، أم كان أشقر، أم كستنائيًا...

اقتربت منه وقد قرّرت أن أنهي ما أنا فيه مهما كانت الخسائر، لكنّ الرجل المشّاء بادرني، وأنا أسمع صوته للمرّة الأولى، فقال: قلت لك سنلتقي قريبًا، لكن لماذا لم تأت أمس؟!

تلك هي حكايتي يا أستاذتي، حكايتي التي أخرجتني من دنياكم، وقرّرت أن أكتبها سواء أكان السؤال عن السرياليّة أم عن الدادائيّة أم عن الواقعيّة، وأنا راضية بالجزاء الذي تريد.

التقطت أنفاسي برهة، ورحت أفكّر في الدرجة التي سأمنحها للطالبة، لكنّ الحكاية أمسكت بي، فقرّرت معاودة قراءتها، نظرت في الورقة أمامي، فلم أجد أيّة كلمة مخطوطة، كانت الصفحة بيضاء، ومكان الإجابة فارغًا، قلّبت الأوراق جميعًا، فما وجدت سوى إجابات الطلبة المقرّرة، حاولت مرّة أخرى أن أنقذ ما يمكن إنقاذه من عبارات الطالبة، فلم تسعفني ذاكرتي، وبقيت من وقتها إلى اليوم، أحدّق، دون جدوى، في بياض الورق.

دار الست نجميّة

لم تحفل طفولتهم في الحارة المنفيّة إلى أطراف المدينة بالكثير من الألعاب، ومع ذلك لم يفتقدوا المتعة، كانوا يتوارثون ألهياتهم البسيطة، ويمارسونها بشغف، فحينما يكون الجوّ معتدلاً، يلعبون (الكرنجي)، فيرسمون على أرض الشارع الوحيد المسفلت، مربّعات ستّة، يقفزون عليها بالتتالي، برجل واحدة، وهم يدفعون حَجَرًا من مربّع إلى آخر، على ألاّ تقف الحجرة على الحدود بين المربّعات، أو البيوت، كما كانوا يسمّونها. وحينما يكون قيظًا أو بردًا، فإنّهم يدخلون بيت أحدهم، ليلعبوا (الصكلة)، فيأتون بخمسة كعاب، وليس الكعب سوى غضروف الخروف الذي له شكل مستطيل صغير، بأربعة وجوه، وجهين محدّبين، وآخرين مقعّرين، يرمون الكعاب الخمسة على الأرض، ويبدؤون بقذف أحدها إلى فوق، ولقف الآخر من الأرض في اللحظة ذاتها، ورغم أنّ الكعاب نظّفت من كلّ نتشة لحم، ومُسحت بالكلور، تبقى رائحة الدسم عالقة في أكفّهم مع غسيلها المتكرّر. إلاّ أنّ متعتهم العظمى كانت في ليالي الصيف، إذ ينتشرون في الأزقّة، وعلى أسطحة المنازل، تمامًا كعصافير فرّت من قفص، يتنازعهم الشوق ليحلّقوا بعيدًا نحو سماء بهيجة، وبعيدة كلّ البعد عن حارتهم المعسرة، وبيوتها المتآكلة التي لا تزال سقوفها من عمد الحور!

لم تكن تلك الألهيات تجذب ليلى، بقدر ما كان يجذبها السور الفاصل بين دارهم ودار الست نجميّة، سور تجلّله دوالي العنب، بحيث لا يرى الناظر أيّ أثر للفخّار الذي يشكّله. منذ أن وعى الناس الدنيا في هذه الحارة، وهم يلوكون قصّة نجميّة بنت ملك الجنّ الأحمر، التي باغتت يومًا مريم صاحبة الدار، وهي تغسل في الليل فوط أطفالها، وتصبّ الماء النجس الحارّ في مصرف الحمّام، ويقسم كلّ من في الحارة على أنّ مريم شاهدت نجميّة بأمّ عينها، وكلّمتها بلسانها الذي أكله الدود منذ زمن. لقد كانت نجميّة أميرة حقيقيّة كأميرات بني البشر، لكنّ كفّيها وقدميها كانت عبارة عن كتل لحم بلا أصابع أو أظافر.

قالت نجميّة لمريم: أنت امرأة طيّبة ومستقيمة، وأنا أحببتك، وأريد أن أؤاخيك، إنّني ابنة الملك الوحيدة، وليس لي إخوة أو أخوات يبدّدون عزلتي، ولقاءَ أُخوّتنا سأغنيك إلى ولد ولدك، وإليك أوّل هداياي...

وما كادت مريم تستعيد صوابها من هول الصدمة، حتّى حاصرتها جرار فخّاريّة مملوءة بليرات ذهبيّة، وحينها اختفت نجميّة لتترك مريم في حالة ذهول.

بعد أن استعادت مريم ذاتها، قرّرت ألاّ تمسّ الذهب، وألاّ تقبل بعرض نجميّة، وذلك خوفًا على أطفالها الذين سيدخلون عالم الجنّ الذي طالما سمعت عن حكاياته المفزعة، لكنّ زوجها أصرّ على أن يأتي بالشيخ، فيجد لهما حلاً. لم يتمالك الشيخ نفسه أمام جرار الذهب، وطلب من مريم وزوجها ألاّ يمسّا أيّ شيء، ريثما يأتيه المدد. في الوقت ذاته كان الخبر قد انتشر، ووصلت الشرطة التي [illegible] أهل البيت، [illegible] [illegible]روا على

لقى أثريّة وهي من حقّ الدولة. وبين الشيخ والشرطة ضاع الذهب، وغادرت عائلة مريم البيت الذي لم يعد يسكنه سوى الجنّ، مستبيحين مجموعة الغرف الطينيّة المحيطة بزريعة، ينمو فيها الرمّان والزيتون بالاتساق مع الأعشاب والحشائش، وذلك كلّه بفضل العناية الإلهيّة فحسب.

قضت ليلى معظم أيّامها، تحاول الاقتراب من السور، تستجمع شجاعتها كلّ ليلة لتخطو خطوة باتجاهه أو خطوتين، ثمّ تعود راكضة إلى حيث تجتمع عائلتها، وقد فتحت الرهبة دربًا جديدة إلى قلبها الصغير.

كان معظم ما يحدث في الحارة يُعزى إلى جنيّات دار الست نجميّة، فإذا ما مرض أحد، فإنّ السبب يعود إلى غضب الجنيّات، وإذا ما وقع أحدهم، فهذا يعني أنّ الجنيّة دفعته، وإذا ما سُرق شيء، فإنّ الجنيّة استعارته، ولا بدّ من أنّها ستعيده لاحقًا، حتّى إنّ إحدى الصبايا التي اختفت من الحارة، قيل إنّ جنيًا أغرم بها وخطفها، لأنّها رفضت الاستسلام له! الأمر عند ليلى تجاوز ذلك إلى ارتباط أمانيها وأحلامها بدار الست نجميّة، فقد كانت تنتظر دائمًا من الجنيّات أن يساعدنها في واجباتها المدرسيّة، أو أن يأتين لها بما تحلم به من لعب وحلوى وثياب وغيرها من شهوات الأطفال، لكنّ شيئًا في داخلها كان يكذّب تلك الأماني، لاسيّما عند سماعها كلام مدرّس الدين في المدرسة. ولعلّ أكثر ما كان يؤرّقها بل يفزعها هو أن يُطلب إليها الصعود إلى السطح لنشر الغسيل أو لمّه، أو تقليب ربّ البندورة في أوعيته المبثوثة تحت الشمس، وكانت وطأة الأمر تزيد في الليل، فكانت تصعد م[illegible]، [illegible] رأسها

إلى الجهة الأخرى، ثمّ تصعد الدرجات العشر مثل سهم، تنتشل الغسيل وتهبط.

أدركت ليلى أنّ مرور الأيّام على هذه الحال ليس معقولًا، وأنّها لا يمكن أن تعيش مع الهلع في مكان واحد، وزمان واحد، وحينما بحثت عن الحلّ لم تجد سوى المواجهة.

وفي ليلة من الليالي قرّرت الصعود، لم تفكّر في لحظة الاقتحام، فكّرت فقط فيما بعدها، فهي إمّا أن تبقى جبانة، وإمّا أن تنتصر إلى الأبد. صعدت السطح، اقتربت من الجدار مغمضة ومسرعة، وكأنّها تهرب من خوفها، ثمّ جاءت اللحظة الحاسمة، وضعت يديها على السور، وثقّلت قدميها على الأرض، وهي تقرأ ما حفظته من قصار السور، وتستعيذ بالله من شرور الشياطين، وفتحت في لحظة عينيها...

كان القمر يضيء المكان، شاهدت الغرف المهجورة، المحيطة بأشجار الفاكهة التي تنوء بحملها، اخترق نظرها نوافذ الغرف ذات الزجاج المكسّر، فلم تجد الجنيّات يطبخن أو يغسلن أو يقمن بأعمالهنّ الشريرة، لم يكن ثمّة أحد، وحين تحمّست أكثر، صاحت بملء صوتها: نجميـــــة، تعالي إليّ يا نجميّة! فلم يُبدِ أيّ أحد أيّة حركة، قضت ليلى الوقت تراقب، حتّى شقشق الفجر، فنزلت بهدوء، ومشت بجوار السور واثقة، ومن يومها لم تعد تخشى الصعود لنشر الغسيل، أو مراقبة مربّى المشمش ليلاً أو نهارًا.

لم تعد ليلى في شوق لسماع حكايات الجدّات، ولم تعد تشارك أقرانها لحظات الخوف والترقّب، أو تشعر بذلك الأمان اللذيذ وهي تلتصق بصديقها المحبّب، حين يتدافع الأطفال نحو باب دار الست نجميّة بقصد إفزاع بعضهم بعضًا، وصارت حينما

تفقد شيئًا تُضطرّ للبحث عنه مطوّلًا، وحينما يصاب أحدهم بسوء صارت ترهق ذهنها للبحث عن السبب الحقيقيّ وراء ذلك...

غادرت ليلى الحارة، وطارت إلى بلاد بعيدة لتتابع دراستها، ولم يكن للجنيّات يد في ذلك، وحينما عادت كانت دار الست نجميّة على حالها، وكانت أسرارها لا تزال محرّك حياة الأطفال والكبار، ظلّت تقف طويلًا عند السور، وفي كلّ ليلة تستجدي نجميّة لتظهر لها، لا من أجل أن تمنحها الذهب، بل لتعيد إليها تلك الرعدة اللذيذة في الروح، التي فقدتها منذ زمن طويل.

رخصة مسدّس

الجميع تحدّث عن تلك الوليمة بإعجاب، فقد كانت وليمة فخمة حقًا، حفلت بأفخر أنواع الأطعمة، والمشروبات، وضمّت عددًا كبيرًا من الناس. لقد أقامها على شرف ضابط الشرطة الكبير في البلدة. الناس يعرفون العلاقة التي تربطه مع الكثير من المسؤولين، وأنّ هذه الوليمة حلقة من حلقات توطيد الصداقة، ولكنّ الذي لا يعرفونه أنّ هذا الاحتفال بالذّات يأتي من أجل رخصة مسدّس لأخيه الصغير الذي بلغ الحادية والعشرين من العمر أمس. لقد كلّفته الوليمة كثيرًا، ولكن لا بأس، المسدّس ضروريّ لأخيه الشاب، فالسلاح هيبة.

أمّا عمدة البلدة، فقد أبدى إعجابه بربطات العنق الفاخرة التي جلبها من "باريس"، وقدّمها هدايا لبعض المسؤولين، وقد غمز في قناة برغبته في اقتناء مثلها. فقرّر أن يهديه أكثر من ربطة عنق، لم لا! فالمسدّس ضروريّ لأخيه الشاب، إنّه حماية.

وها هو يتلقّى اتّصالاً من مسؤول الأمن في البلدة، يشكره على الشراب الفاخر الذي أرسله منذ مدّة، ويسأله إن كان متوافرًا في مكان يعرفه، ذلك أنّه بحث كثيرًا في السوق عن ذلك النوع، فلم يحظَ بالحصول عليه. فأرسل له أكثر من زجاجة من هذا الشراب الفاخر، كان قد أحضرها من مدينة قريبة، وسيقدّم له

المزيد، فالمصلحة تقتضي الحفاظ على علاقات جيّدة بالمسؤولين. والمسدّس ضروريّ لأخيه الشاب، إنّه وجاهة.

لم يُخيّب الأصدقاء ثقته بهم، فهو غالٍ والطلب رخيص! وهاهي الرخصة أمامه، والمسدّس في خصر أخيه الشاب، هيبة. وحماية، ووجاهة!

لم يستخدم الأخ الصغير المسدّس المرخّص إلاّ مرّة وحيدة. كانت حينما اختلفا على إرث لهما، فأشهر الأخ الشاب المسدّس في وجهه، وأطلق عليه رصاصة.

بنت الملك

"كان يا ما كان، في مملكة بُصرى من أرض الشام، كانت عرّافة قد أخبرت الملك بأنّ ابنته الوحيدة، التي رَهَنَ حياته من أجلها، ستموت في عيد ميلادها العشرين بلدغة عقرب، فما كان من الملك إلاّ أن أمر بأن يُعمَّر لها سرير معلّق في الهواء، على أقصى ارتفاع يمكن أن تصل إليه قدرة أمهر البنّائين..."

قرّر الرجل المعذّب بغرامها ألاّ يتابع الأخبار، ولم يعد يرتاد المواقع الإلكترونيّة التي تنشر قصصها ومقالاتها، أغلق حواسّه دون أيّ شيء يتعلّق بتلك المرأة الكاتبة التي يحاصره حضورها ويغويه. أمّا هي فكانت تتسلّل كلّ ليلة إلى أحلامه، تتحاور معه قليلاً، وتنسحب، ليعود في الصباح يتصارع مع رغباته في اقتفاء أثرها، وبصعوبة مطلقة كان ينتصر كلّ يوم.

هي تكتب بدأب، تحكم قبضتها كالعادة على الإعلام المرئيّ، والمسموع، والمكتوب، والإلكترونيّ، والمتلقّي الافتراضيّ الذي في ذهنها، ليس إلاّ هو، الرجل الذي يقاطع...

" تطاولت الأعمدة عاليًا جدًا لتحاذي السماء، وهناك بني سرير من الرخام على قدّ الأميرة، التي رُفعت إليه قبل اليوم الموعود..."

لم يعد يخرج من البيت كي لا يتعثّر بما ينتمي إليها، لا مقاهي، ولا أسواق، ولا مطاعم، أو أمسيات، أو معارض، تلك

الأماكن التي من المتوقّع أن تجمعهما فيها صدفة قريبة أو بعيدة. أفضت به الحال إلى أن يصير من روّاد أماكن حوشيّة من المدينة، لايمكن أن تصلها أقدام النساء...

"استلقت بنت الملك هناك بسلام، وكان العبيد يرفعون إليها الطعام والشراب بالحبال، وبذلك أمن الجميع من وصول أيّة آفة إليها. مرّ يوم ميلادها العشرين هانئًا، وتلقّت في ختامه سلّة من أجود أنواع الفاكهة احتفالاً، إلاّ أنّ العقرب المقرّر أن يلدغها كان قد اختفى بين حبّات عنقود العنب الأخضر، الذي ما أن مدّت يدها إليه حتّى لدغها وماتت."

هناك، في الحيّ البعيد الذي يقع عند أطراف المدينة، ، جلس، في هدأة المساء، الرجل الذي قاطع أخبار المرأة الكاتبة ليتناول طعامه، وقبل أن يرمي بالورقة التي لفّت بها الشطيرة، والمجتثّة من أصل مجلّة، قرأ فيها الحكاية التي عنوانها (سرير بنت الملك)، أمّا الحكاية فقد كانت موقّعة باسم الكاتبة التي قرّر الرجل، أن يهرب منها!

شجرة الأمنيات

كنتُ قد نفضتُ يدي للتوّ من تزيين شجرة الميلاد، وذلك بعد نهار طويل من العمل المنزليّ المضني. وقفتُ أتأمّل بهاءها، متوسّلة فَرَحًا، وسلامًا، مستذكرة أحلامًا صغيرة وكبيرة، عمرها ثلاثون سنة، طالما حمّلتُها لتلك الكرات المتدلّية اللّمّاعة، التي تشرق مع كلّ حركة، فتشرق معها نفسي والأمنيات! حينها دخل زوجي قائلاً: معكِ نصف ساعة، لتفكّري في هديّة العيد التي ترغبين بها.

منذ صغري، اعتدتُ أن أكتب أمنياتي، والهدايا التي أرجوها، على أوراق صغيرة، ملوّنة، أعلّقها على الشجرة. تناولتُ قصاصات الورق الملوّنة، وزوجي يردّد خارجًا: نصف ساعة فقط!

هممتُ بالكتابة، فبكت طفلتي من خلفي، حاولتُ تجاهلها، لكنّ بكاءها ازداد حدّة، كأنّها تستغيث، لقد بلّلتْ نفسَها، وهي جائعة أيضًا، انصرفتُ إليها...

ثمّ هممتُ بأن أكتب، فتناولتُ القلم، وإذ بالهاتف يرن، حاولتُ تجاهله، لكنّه عاد ليرنّ بإلحاح، نظرتُ إلى الكاشف، فوجدتُ رقم صديقتي الحميمة، رفعتُ السمّاعة، صديقتي لديها مشكلة، وتطلب مشورتي، تكلّمنا، اقتنعتْ بوجهة نظري، تواعدنا على اللّقاء...

أمسكتُ بالقلم، وبإحدى الأوراق الملوّنة، وشرعتُ أكتب، وإذ بساعة الفرن التي ربطتها ترنّ، لا يمكن تجاهلها، وإلاّ احترقت كعكة العيد!

سارعتُ إلى المطبخ، أخرجتُ الكعكة مستعينة بقفّاز الطبخ الذي كان مهترئًا في جزء منه، ممّا جعل حرارة قالب الكعك تصل إلى يدي، التي لم تمهلني حتّى أضع ما فيها بتأنّ، رميته على الطاولة كيفما اتّفق، فوقع على إناء الزيت الذي انسكب على الأرض. لا بدّ من تنظيف المطبخ جيّدًا حتّى يزول الدسم.

كان صوت الطفلة يأتيني من الغرفة الأخرى، لقد عاوَدَتِ البكاء. في هذه المعمعة، دخل زوجي، لابدّ من أنّه ألقى نظرة على الشجرة، إذ عاد ليقول بجديّة تامّة: يبدو أنّكِ لا ترغبين بشيء هذه السنة، كلّ عام وأنتِ بخير!

حينما ذهب زوجي لينام، كنتُ قد رتّبتُ كلّ شيء، عدتُ إلى قصاصات الورق التي تنتظر. كان الوقتُ المحدّد لأمنياتي ـ لا أدري إن كان زوجي جادًا أم مازحًا ـ قد انقضى. في الحقيقة، ما كنتُ سأطلبه أمنية واحدة فقط: إنّها بعض الوقت لأكتب هذه القصّة!

محاورات يونانيّة

سأل هيبيوس سقراط: أليست الدرع المزخرفة جميلة؟

ردّ سقراط: بلى، وحقّ زيوس، إنّها جميلة! لكنّها تصبح غير جميلة إذا كانت مكسورة.

تجهّم هيبيوس: وما علاقة كسرها بجمالها؟

قال سقراط: يا هيبيوس ألم أقل لك إنّ الجميل هو النافع، إنّ الدرع المكسورة مهما بلغت زخرفتها، لن تقي الفارس من ضربات الأعداء!

انتفضت زوجة هيبيوس قائلة: بلى وحقّ زيوس، إنّ الجميل هو النافع، لكنّ الدرع المكسورة هي وحدها الجميلة، لأنّها ستبقي زوجي في أحضاني!

أَمْن

الطالب الذي قدم من منطقة نائية، والذي ابتعثته الجامعة لمتابعة دراسته في فرنسا، أقدم على قتل عشيقته، التي رآها بصحبة زميل فرنسي. عندها قررت الجامعات الفرنسيّة أن تطلب مع أوراق الإيفاد، وثيقة تصادق فيها الجامعة الأصليّة على أنّ البيئة التي ينتمي إليها الطالب الموفد، بيئة صحيّة، تؤهّله للعيش في فرنسا.

وقع القائمون على الأمر في حيص بيص، ولم يتمكّن حتّى الرجل الرشيد فيهم من الوصول إلى طرف مؤهّل لمنح مثل هذه الوثيقة، فهذا الذي اقترح أن تمنح من قبل وزارة التعليم، وذلك أصرّ على أنّ الوثيقة من اختصاص وزارة الزراعة، والآخر أدلى بدلوه المتضمّن أنّ المسؤول عن الأمر وزارة الصحّة...

ومنذ ذلك الحين صار الطلاّب الموفدون يحصلون على وثيقتهم تلك من دائرة الأرصاد الجويّة، إلى أن أُحدثت وزارة البيئة!

ليليت

كان السرّ الذي يحيّرها هو نزوع الرجل لهجر زوجته، واتخاذ عشيقة! وفي يوم من الأيّام، وقع بين يديها مخطوط مقدّس، يحكي حكاية البشريّة، وحينما فكّت طلاسمه، عرفت أنّ آدم كان قد وقع في هوى ليليت، وأنّه طلب منها أن تضطجع، فرفضت، وهربت منه، تاركة الجنّة، وأنّه ظلّ ينتحب حتّى خلق الله من ضلعه حوّاء، وزوّجه إيّاها. إلاّ أنّ قلبه ظلّ معلّقًا بـ (ليليت)، وقضى لياليه يتخيّلها مضطجعة...

ومنذ ذلك اليوم صارت المرأة التي قرأت المخطوط المقدّس تنام واقفة.

قلوب طيّبة

التعب هدّني، فالطريق من حيث أقيم إلى مدينتي النائية طويلة جدًا، وتوتّر الأعصاب، ذلك أنّها ضيّقة، وباتجاه واحد. لم أتمكّن من السهر مع والديّ، رغم غيابي الطويل عنهما، فما أن ألقيت جسدي على السرير حتّى رحت في نوم عميق. لا أعلم بالضبط كم نمت، لكنّي قدّرت من العتمة التي تغرق فيها الشرفة أمامي أنّني لم أنم أكثر من ساعة، وما زلنا في الهزيع الثاني من الليل. الصوت الذي أيقظني كان مخيفًا ومؤلمًا في الوقت ذاته، مخيفًا لأنّ الوقت متأخّر على مثل ذلك النداء، ومؤلمًا لأنّه كان صوتًا شجيًا لشيخ ملتاع كان يصيح:

"يا إخوان، من وجد بنتًا ضائعة عمرها أربع سنوات، فليحضرها إلى جامع عمر بن الخطّاب، وأجره على الله!"، ثمّ يعيد: "يا إخوان، من وجد بنتًا ضائعة عمرها خمس سنوات، فليحضرها إلى الجامع الكبير، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون..."، يا إخوان... يا إخوان...

كان يبدو على عباراته الاضطراب، بل فقدان التوازن بسبب ذلك الخطب، فلا بدّ من أنّه فقد بنتًا أو حفيدة في هذا الليل. كان يردّد ويردّد بصوت متهدّج يقطّع نياط القلب، ولا يمكن أن أستمرّ في النوم بعد هذا النداء، لابدّ من أن أفعل شيئًا!

زوجي في السرير المجاور كان قد استيقظ مرعوبًا أيضًا، وربما استوعب طبيعة النداء، كانت قد مرّت في بالي صور موجعة، ماذا لو كانت الضائعة ابنتي، ماذا سيحلّ بها! قد يتلقّاها الموت، وهذا أهون الاحتمالات، لأنّ ابن حرام قد يجدها، وكم سمعنا عن حالات اغتصاب، أو قتل للاتجار بالأعضاء، وقد تقع في أيد أمينة، ولكن بعيدًا عن أهلها، وقد، وقد...

عزمت على المساعدة، ورجع النداء يقع في قلبي خناجر، لم يحاول زوجي الكلام أو حتّى تغيير ملابسه، لحق بي لنبحث مع هذا الشيخ عن الضائعة.

لم نجده في الخارج، لابدّ من أنّه انتقل إلى حارة أخرى يستحثّ أهلها، ركبنا السيّارة، ورحنا ندور بها على غير هدى، ذرعنا المدينة الصغيرة أكثر من مرّة خلال ساعة، دون جدوى، فعدنا والألم يعتصر قلوبنا.

استقبلتنا أختي، متعجّبة من خروجنا في هذا الوقت من الليل، سألناها إذا ما كانت قد انتبهت للنداء! فغرت فاها، ففاجأتنا، ثمّ غرقت في الضحك، وقالت: ما أطيب قلبيكما! إنّه مجرّد رجل مخبول، يجوب الحيّ كلّ ليلة، يردّد النداء ذاته، ويرحل، وليس ثمّة ضائعة أو ضائع سوى عقله!

ضربات موفّقة

قالت الأولى:

كان دائمًا يطيح بي أرضًا، أعرف أنّه يفوقني قوّة جسديّة، لكن كنت أشعر بالقهر الذي تعقبه متعة، متعة المشاكسة.

أعود للتحرّش به، أخلع قبّعته عن رأسه، وأطوّح بها في الهواء، مع ركْلةٍ موجّهة من قدمي إلى خاصرته، فيركض خلفي على الشاطئ، أهرب، وأمنح وَثَباتِه فرصة للحاق بي، يلتقطني، ثمّ يطيح بي أرضًا. كنت في السابعة وكان في التاسعة.

مرّ صيف، وصيف، وصيف، وظلّ يطيح بي أرضًا...

ثمّ مرّ عشرون صيفًا، ولم يمرّ على الشاطئ، لم يقل حتّى وداعًا!

وعاد ذات صيف، وعلى خصره صبيّة، لم يقل شيئًا، لم يشاكسني، لم أشاكسه، ولم نتعارك، فقط أطاح بي أرضًا!

قالت الثانية:

أمّا أنا، فكان يعلّمني الرسم، يمسك يدي بحنوّ، يجوب بها على الورق الأبيض، نستبدل الألوان، والخطوط، والأشكال، ثمّ يجتاحني عبث الطفولة، فأدفع يده، تضطرب الورقة، والخطوط، وتنسكب الألوان، فيدخل في طور استفزاز، يمسك يدي بقسوة،

أصرخ. يزداد قسوة. أسحب. فيسحب. فتدمي كفّي ساعته. خاتمه. حافّة الريشة المعدنيّة...

كنت في السابعة ربّما أيضًا، حينما حصلت على ندبة في ظاهر كفّي...

الوقت الطويل الذي مرّ، حثّه على أن يلتقطني بخفّة. فيمسكني بشدّة. هصرني بين ذراعيه حتّى أفقدني السيطرة على جسدي، بقواي المتبقّية دفعته، فدخل في طور استفزاز، أفلتني. وأخذ كفّي رهينة، ضغط عليها بقسوة، صرخت، ازداد قسوة. حاولت التفلّت، فأدمت كفّي ساعته، خاتمه...

صار في ظاهر كفّي ندبتان بينهما عشرون سنة!

ماحدث فى حقل الحنطة...

"ياه... كم أنا مشتاقة!" هكذا كانت تعترف لنفسها طوال الطريق. وكلّ شيء حولها كان يغري بمزيد من اللهفة: النهر الذي يطلّ على استحياء من وراء التلال عن يمينها. وحقول الحنطة التي تتأبّط يسارها. والدرب الإسفلتيّة السهلة التي تنهبها بسيّارتها الصغيرة.

"لعلّ أسراب الطيور المسافرة في هذا المساء هي سبب التئام المسافة بيننا!" تلك هي الجملة الافتتاحيّة التي كانت تتمرّن عليها، لتبدأ بها اللقاء...

عرّجتْ نحو الطريق الترابيّة بطلاقة. غير آبهة بالممنوع والمسموح. فقد تحوّل الانتظار الطويل إلى كرات محمومة من العجلة.

لا تعرف كيف رمت بنفسها أمام عتبة الكوخ الذي تجرّأت على فراقه فجأة، ولسنوات، بسبب قسوة صاحبه، أو لامبالاته أحيانًا، وعادت اليوم لتستميح المكان أعذارها، ولكن ما بال بابه مغلق على غير العادات السابقات؟!

انطلقت إلى حقل الحنطة وراء الكوخ، مكانهما المحبّب، الذي طالما شهد دموعًا، ووعودًا، وقبلاً...

ملأها الفرح، حين رأته واقفًا بين السنابل، وراحت تناشد الصبر أن يبقى معها، ريثما تصل إلى حيث يقف، وأسئلة تتلاطم في رأسها: ما باله يرتدي معطفه في هذا الصيف؟! أليس هو معطفه القديم الذي بلي منذ زمن! وعلام يضع كوفيّته المبرقعة، التي لا يتذكّرها إلاّ في يوم عجاج غباره يعمي العيون! ثمّ قالت لنفسها: ما زال غريبًا ومدهشًا هذا الرجل الحبيب، وعكس الناس يصير أطول مع العمر!

كان اضطرابها يزداد مع كلّ خطوة نحوه، أتناديه فيلتفت ويراها، أم تأتي من ورائه وتفاجئه بمسكة يد أو قبلة، أم تغمض عينيه بكفّيها، فيخمّن؟

لم يُبد أيّة حركة، كان يتأمّل الأفق أمامه فحسب، في حين لسعتها إبرة غيرةٍ من عصافير حطّت على كتفيه بأمان. صارت خلفه تمامًا، فلم تلفحها أنفاسه، ليس ثمّة سوى رائحة الطبيعة.

انقهرت، ودفعته بغيظ، وبكلّ ما أوتيت من قوّة، فاندفع... واستلقت بين قدميها الفزّاعة التي أعطاها ثيابه العتيقة، ليبعد الطيور عن حقل الحنطة.

يحدث كثيرًا

حين دخلتُ المدينة للمرّة الأولى، كانت سماؤها تمطر أيضاً!

كان ذلك في أواخر شهر تشرين الأوّل، وكان إسفلت الشوارع قد شرب ماء وافياً من غير أن يغرق.

حبّات المطر كبيرة، إلى درجة أنّ ارتطامها بالرأس أو الوجه كان موجعاً، وشجر الزيتون الواقف على جوانب الطرقات كلّها تقريباً، بلغ الصحو، وانتعش، وبانت نضارته. الأبنية البيضاء وقتها استفاقت من ثقل الغبار والجفاف، كلّ شيء كان يوحي بأنّها المطرة الأولى لذلك الموسم، مثل هذه المطرة تماماً، وكأنّ تاريخ المطر يكرّر نفسه، ولم تمرّ هذه السنوات الطوال كلّها على دخولي هذه المدينة التي يمكن أن أعترف بأنّني أحببتها حقّاً، ولم أرد أن أفارقها أبداً.

الغريب في الأمر أنّ المدن الثلاث التي وقعت في غرامها دخلتها تحت سماء ماطرة، ولم تضحك لي شمسها إلاّ في اليوم الثاني أو الثالث لوصولي، وكأنّها تعرف مسبقاً مدى حبّي لرائحة الوجد التي يبعثها التراب حين يلتقي بقطرات ماء السماء الأولى لقاءً أوّل بعد غياب، بكلّ ما فيه من شهقات الفرح ودمعات العتاب.

أبي - رحمه الله - كان يحبّ المطر كحبّ أحدنا، وكان يحتفل

بالمطرة الأولى بأن يصنع لنا بيديه شاياً مطيّباً بالهال لنتناوله مع قطع (الإنجليش كيك) التي يكون قد أحضرها خصّيصاً لهذه المناسبة، وكان يقول: "أجملوا في الدعاء فإنّ أبواب السماء مفتوحة!". أمّي كانت تقول (كناية عن مطر تشرين حيث موسم الرمّان):

"مطر الرمّان، يغسل القلب من جور الزمان، والبلاد من درن السلطان!".

أبي أيضاً رحل في يوم ماطر، فقال الأحبّة إنّ السماء تبكي عليه!

لم أتذمّر يوماً من مطر يبلّلني. أمشي تحته بلا مظلّة، أكتفي بقبّعة (الترينشكوت) الخفيف الذي أرتديه، ولم تضايقني قيادة السيّارة تحت المطر إطلاقاً، إذ أكون حذرة من الانزلاق في المطرة الأولى، وحين ترتوي الشوارع والعجلات من الماء، أعود إلى سرعتي المعتادة.

الرجل الذي أعدّه حبّ حياتي، التقيته أوّل مرّة مدّرئاً تحت وجيبة بيتونيّة لمقهى، منتظراً أن يهدأ المطر فيتابع سيره، وحين بدا أنّ الأمر سيطول، دخل المقهى حيث تعارفنا... لن أستعيد ذكرى الحكاية، فهي تثير في نفسي غصّة، إذ تركني، بعد قصّة حبّ عاصفة، من غير أن يودّعني أو يقلّني إلى محطّة القطار! تركني هكذا أمشي في الشارع وحدي في مدينة غريبة أحببتها كثيراً، وخرجت منها بجراح كثيرة، وحينما دخلتها كانت تمطر أيضاً، وكان المطر يضرب بحرها الجميل، فيستقبل البحر تلك الضربات بسماحة الكرام.

السيّارة التي تقلّني بدأت تثقل في حركتها إذ رحنا ندخل دروباً متعرّجة أودّع عندها هذه المدينة المطمئنّة التي سأترك فيها أيّاماً حلوة وأيّاماً مرّة، هكذا بالتساوي الذي يجعلني أقول إنّها كانت معي مدينة عادلة، ما دمنا قبلنا بقسمة النصف، لكنّ المدن العادلة لا تعيش في الذاكرة طويلاً، الذاكرة تحبّ الطعم اللاّذع!

مازالت السماء تسحّ، والعجلات تتوقّف، لقد أبت المدينة إلاّ أن تودّعني مثلما استقبلتني اوّل مرّة. أقدام الرجال من حولي بدأت تغوص في التراب الذي أوحل سريعاً، وبصعوبة ساروا بي إلى المكان الذي أعدّوه منذ ساعات الصباح الأولى، حيث الحفرة الصغيرة التي ستوارى فيها جثّتي.

شَهلا العُجيلي

شَهلا العُجيلي، كاتبة سوريّة، حاصلة على درجة الدكتوراه في الدراسات الثقافيّة، وهي أستاذة الأدب العربيّ الحديث في جامعة حلب، وفي الجامعة الأميركيّة في مادبا.

صدر لها في مجال الرواية:

- "عين الهرّ" التي حصلت عنها على جائزة الدولة الأردنيّة في الآداب.
- "سجّاد عجمي".
- "سماء قريبة من بيتنا".

وصدر لها في مجال القصة القصيرة: "المشربيّة".

ولها في النقد والدراسات الثقافيّة مجموعة من الكتب والأبحاث المحكّمة، منها:

- "الرواية السوريّة- التجربة والمقولات النظريّة".
- "الخصوصيّة الثقافيّة في الرواية العربيّة".
- "مرآة الغريبة- مقالات في نقد الثقافة".

صدر من هذه السلسلة

١ ـ رماد مريم	واسينى الأعرج
٢ ـ الرواية العربية ورهان التجديد	محمد براده
٣ ـ لست جرحًا ولا خنجرًا	قاسم حداد
٤ ـ ظلمة يانيل	محمد الغربى عمران
٥ ـ موتى يجرون السماء	موسى حوامدة
٦ ـ دليل المتحيرين	حكمت الحاج
٧ ـ حدث الهدهد.. قال (انطولوجيا القصة القصيرة فى الجزائر)	حسن دواس
٨ ـ طيران الحدأة	سعدى يوسف
٩ ـ كرنفال الحب والحلم	منير مزيد
١٠ ـ بيت بعيد	عبد الرحيم الخصار
١١ ـ تحولات النصوص	عمر عبد العزيز
١٢ ـ سلطان السرور	فرحان بلبل
١٣ ـ البوح والترميز القهري	حاتم الصكر
١٤ ـ على باب الهوى	صبحى فحماوى
١٥ ـ طرق يونس	جبار ياسين
١٦ ـ من قتل شهريار؟!	محمد الرحبى
١٧ ـ تانجو من نافذة بيروت	شوقى بدر يوسف
١٨ ـ رقعة شطرنج	عبد الكريم كاصد
١٩ ـ أطراف الكلام	عبد الخالق الركابي
٢٠ ـ سرير بنت الملك	نهلا المُجيلي

كان يا ما كان، في مملكة بُصرى من أرض الشام، كانت عرّافة قد أخبرت الملك بأنّ ابنته الوحيدة، التي رَهَنَ حياته من أجلها، ستموت في عيد ميلادها العشرين بلدغة عقرب، فما كان من الملك إلاّ أن أمر بأن يُعمّر لها سرير معلّق في الهواء، على أقصى ارتفاع يمكن أن تصل إليه قدرة أمهر البنّائين...

الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة إبداع عربى

20

سرير بنت الملك

قصص قصيرة

الكمبيوجرافيك وتصميم الغلاف : أحمد اللباد

ISBN# 9789779107233

٧جنيهات

T.ME/KOTBHM